العجائبي و أدب المعراج ابن عربي أنموذجًا

THE MIRACULOUS AND THE LITERATURE OF THE MI'RAJ IBN ARABI AS A MODEL

آمال زعيم*

- جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، zaim_amel@autlook.fr

تاريخ الارسال 2023/01/29 تاريخ القبول 2023/02/14 تاريخ النشر2023/06/10

ملخص: تختبر هذه الدراسة العجائبي في قصص المعراج الصوفي بصفة عامة و معراج ابن عربي بصفة خاصة، باحثة في معالمه، حيث يأخذ صورًا متعددة تتعلق بتشكيل النص من الداخل و الخارج. وقد كان لحادثة الإسراء و المعراج النبوي أثرًا في تشكيل النص العجائبي الصوفي الذي اشتغل على تحويل هده القصة إلى نوع أدبي ينتمي إلى السرديات الكبرى بخصائصه المتنوعة و مميزاته المبتكرة حيث عُرف في الدراسات باسم أدب المعراج. و يحاول البحث الإجابة عن الإشكالية المعضلة : إلى أي مدى يمكن لعناصر العجائبي أن تتحقق في نص المعراج الصوفي و قصد الإجابة على هذه الإشكالية لابد من الكشف عن صيغة المعراج الصوفي باعتباره محاكاة لقصة المعراج النبوي في تحقيق شروط العجائبي بعناصره و مكوناته .

الكلمات المتاحية : العجائبي/أدب المعراج/المعراج النبوي / المعراج الصوفي/ابن عربي.

Abstract : This study poses an epistemological dilemma represented in observing the miraculous landmarks. Its components in the Sufi texts in general and the Mi'raj texts in particular to what extent are the texts of the Sufi Mi'raj achieved in the miraculous? This study also monitors the conditions and elements set by Todrov in his book Introduction to Miraculous Literature in order to mark literary texts as miraculous.

The approach(the method) :

The method used in this study is the textual-analytical approach to the components of the miraculous Which can be monitored from the structure of the text, i.e. from the inside, and it is also possible to observe the miraculous outside the text.

Miraj Essence and concept :

The Mi'raj is known in linguistic dictionaries as being included in Al-Abraam.

This usage is referred to in its context to denote ranks, virtues, and good qualities.

This miraculous study examines the stories of the Sufi Mi'raj in general and the Mi'raj of Ibn Arabi in particular, Researching its features, as it takes multiple images related to the formation of the text from the inside and the outside.The incident of the Prophet's Night Journey and Ascension had an impact on the formation of the mystical miraculous text which worked on transforming this story into a literary genre that belongs to the major narratives with its diverse characteristics and innovative features, it was known in studies as the Mi'raj literature.

Keywords: The Miraculous Miraj / Literature of Mi'raj / The Prophet's Ascension(Mi'raj) / The Sufi Ascension / Ibn Arabi

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

يُعد معراج الرســـول عليه الصلاة و الســـــلام أنموذجـــــا أصليا[1] باعتباره مصدرا أساسيا بمضامنيه و عناصره للكثير من المؤلفات و النصوص و الفنون المندرجة في سياق الثقافة الحالمــة أو الفلكـلور. وقد شــهدت قصة المعراج تحـــولات عـــديدة، من قصة السيرة النبــوية و القرآن الكريم و الأحاديث النبوية الشريفة إلى رؤية صوفية متميزة تنم عن صيرورة نسقية رمزية لكل ملامح أدب المعراج الصـــوفي : كمعراج القشيري، و معراج ابن عربي و معراج البسطامي.

و الملاحظ أن قصة المعراج هي الإطار الخاص الذي فـــرض سلطته على أدب المعراج الذي يُعد تنويعا لأثر واحد .[2]

و اختص المتصوفة في المنظومة الحضارية الإسلامية بتجارب روحية و ذوقية تنم عن مسعى الصوفي إلى الارتقاء و الرقي بالروح فناءًا و كشفًا و ذوقًا. فكان لابُد من السير في الطريق السلوكي بتهذيب النفس بالمجاهدات و الرياضات قصد الحصول على المعرفة الإلهية.

و لقد وجد المتصوفة في قصة المعراج إطارًا هاما و مرتكزًا أساسيا لتجسيد مقولاتهم في السلوك الصوفي. الروح إلى بارئها عبر التدرج في المقامات، إذ يدل المعراج على التدرج و الترقي سواءًا كان حسيًا أو معنويًا. و لعل هذا ما يفسر المنجزات الإبداعية الصوفية حول المعراج.

لقد شكلت قصة المعراج محورًا أساسيا في معتقدات الصوفية، و قد كان في إعجاز هذه الحادثة بالغ الآثر في نفوس المتصوفة إذ اشتغل الكثير منهم على العناية بها إذ غدت لديهم تجسيدًا للطريق الصوفي أو لمقولتهم في عروج الروح إلى بارئها. عبر التدرج في المقامات و الأحوال ذلك معنى المعراج يحيل إلى الترقي حسيًا أو معنويًا.

و لعل هذا ما يفسر لنا بشكل جلي إنشاء نصوص صوفية موازية حول حادث المعراج.

- **إشكالية الدراسة :**

تطرح هذه الدراسة معضلة معرفية تتمثل في رصد معالم العجائبي بمكوناته في النصوص الصوفية بصفة عامة و نصوص المعراج بصفة خاصة فإلى أي مدى تتحقق نصوص المعراج الصوفي بالعجائبي ؟

كما ترصد هذه الدراسة الشروط و العناصر التي وضعها تودوروف في كتابه مدخل إلى الأدب العجائبي من أجل وسم النصوص الادبية بالعجائبية.

- **المنهج :**

إن المنهج المتبع في هذه الدراسة هو المقاربة النصية التحليلية لمكونات العجائبي و التي يمكن رصدها من بنية النص أي من الداخل كما يمكن الوقوف على العجائبي خارج النص.

- **أهمية الدراسة :**

تندرج هذه الدراسة في مسار استكناه النصوص التراثية و سبر أغوارها و محاولة إماطة اللثام عن كنوزها التي لا تنضب و ذلك محاولة منا لمقاربتها من منظور نقدي عربي و ذلك بإخضاع مصطلح العجائبي لسلطتها كشفا عن الإضافات و الامتيازات التي يحملها نصوص المعراج الصوفي.

إن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح : هل المعراج الصوفي يحاكي المعراج النبوي بجميع مواصفاته الشكلية و المضمونية ؟

لكن قبل الإجابة عن السؤال لابد من إيضاح ماهية و مفهوم المعراج.

2. المعراج : الماهية و المفهوم :

أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول معراج في القواميس اللغوية بأنه مُدرج في الأجرام، و يحيل هذا الاستعمال في سياقه ليدل على الرتب و الفضائل و الصفات الحميدة.[3]

و المعراج هو المصعد و المرقى و الطريق الـذي تصعد فيه الملائكة) [4]

و المعراج هو أحسن شيء لا تتمالك النفس إذا رأته أن يخرج و إليه يشخص بصر الميت من حسنه.[5]

وفي قوله تعالى " من الله ذي المعارج "[6] أنه صاحب المراقي إلى نهاية الكمالات و علو الذات أو هي أمكنة عروج الملائكة من سماء إلى سماء ".[7]

أما في قوله تعالى {**تَعرُجُ الملائكة**}[8] أي تصعد الروح أي جبريل عليه السلام.[9]

3. المعراج النبوي و المعراج الصوفي :

و يجيبنا على السؤال السابق ابن عربي حيث يقسم المعارج إلى ثلاث مراتب :

معراج الملائكة ، معراج الأنبياء و الرسل و معراج الأولياء.

وقد وصف ابن عربي معراج الملائكة بأنه :" إذا عرج الملك عرج بذاته لأنه رجوع إلى أصله، و لا يعرج من الملائكة إلا منْ نزل بطبعه".[10]

بينما الرســـول إذا عرج : " ركب البراق فعـــــرج به البُراق بـــذاته، و عرج الرسول لعروج البُراق بحكم التبعية و الحركة القسرية، فكان محولاً في عروجه، حملة من عروجه ذاتي، فتميز عروج الرسول من عروج الملك" .[11]

أما الولي الصوفي في عروجه تابع للرسول إذ هو معراج معنوي يختص به الله من عباده من يشاء و يختلف معراج التشريع الذي لا يكون إلا للرسل و الأنبياء " فهو معراج تشريع و ليس للولي ذلك" فثبت لنا " إن معارج الأولياء بالهمم." [12]

و على هذا فإن إسراءات المتصوفة " روحانية برزخية يشاهدون فيها معاني متجسدة في صور محسوسة للخيال ، يعطون التعليم بما تتضمنه تلك في أرض الصور من المعاني، ولهم الإسراء و في الهواء، غير أنهم ليست لهم قدم محسوسة في السماء .... فإسراءاتهم تختلف لأنها معان مجسدة بخلاف الإسراء المحسوس فمعراج الأولياء معراج أرواح و رؤية قلوب وصور و برزخيات و معان مجسدات "[13].

و نستشف من خلال النص السابق جملة من المنطلقات المنهجية و المقولاتية التي تمثل الإطار المعرفي للمعراج الصوفي تتمثل في :

- أن المعراج النبوي معراج تشريع و المعراج الصوفي معراج تبعية.
- العلوم التي يحصل عليها الولي الصوفي في معراجه ليست علوم تشريع، و إنما أنوار وفهم.
- معراج النبي كان بالجسد و الروح، و معراج الولي لا يكون إلا بارتقاء الروح إلى بارئها.

4. المعراج و عناصر تحقق العجائبي :

1.4 عالم الشخصيات :

يشترط تودوروف في كتابه مدخل إلى الأدب العجائبي مجموعة من الشروط أ ول هذه العناصر ضرورة التعامل مع عالم الشخصيات داخل النص باعتباره عالم أحياء حقيقيا و لا غرو إذ قلنا أن هذا الشرط يتمظهر في نصوص المعراج الصوفي و ذلك لتأثير المتلقي غير أن تودوروف في ضبطه لهذا المعيار أو العنصر استعان في دراسته بنصوص أدبية تتمظهر فيها شخصيات واقعية داخل النص لا خارجه أي أنها شخصيات حقيقية داخل النص و لا امتداد لها في الواقع خارج النص.

أما شخصيات المعراج فهي شخصيات حقيقية داخل النص و لها امتداد في الواقع أيضا فشخصية ابن عربي (السارد، السالك) و الملائكة، و الرسل و الأنبياء عليهم السلام كلها شخصيات لها امتداد في الواقع، أي أن لها مرجعية تاريخية لها وجود حقيقي داخل النص و خارجه و لابد للمتلقي أن يتماهى مع شخصيات النص إما برفضها أ, قبولها، إذ أن العجائبي عند تودروف مرهون بلحظة التردد الذي يعيشه المتلقي إزاء أحداث فوق طبيعية يتم فيها استقبال الوقائع المألوفة بوقائع فوق طبيعية غير مألوفة أما الشخصية داخل النص (السالك) فلا تتردد أبدًا في تصديق ما نراه بل هي على يقين و صدق الأحداث.

و لا غضاضة إذ قلنا أن العجائبي لا يدوم إلا زمن التردد من المتلقي أو الشخصية معًا إزاء الأحداث إما بردها إلى قوانين طبيعية مألوفة أو قوانين غير طبيعية و غير مألوفة.

إذن فالعجائبي عند تودروف مرهون بلحظة خطيرة تحدد مصيره و هو مهدد بالتلاشي و الإضمحلال فهو نقيض بين العجيب و الغريب.

فتحديد العجائبي يستند بالضرورة إلى تحديد العجيب و الغريب، فإذا وقف المتلقي أتجاه الأحداث فوق طبيعية، و فسرها تفسيرا عقلانيا فنحن إزاء نص غريب أما إذا تقـــبل القارئ الأحداث فوق طبيعية على ما هي عليه فنـحن إزاء نـــــص عجيب .[14]

2.4. الحتمية الشاملة :

يتجلى هذا المظهر في معراج ابن عربي من خلال وصفه للسالك بصفات تجعل منه إنسانا مبتغيا للكمال باعتباره العالم الذي انطوى تحته الكون برمته، فيصفه الله تعالى بصفات عجيبة تذهل لها العقول بقول أيها الرب أنت الذي أردت، و أنت الذي اعتقدت..... ما علمت سواك، و لا ناجيت إلا إياك.[15]

إنها أوصاف تثير الحيرة و الانبهار تجاه هذا المخلوق العجيب الذي يتمتع بقوة خارقة غير مألوفة لدى القارئ.

3.4.العبور بين المادي و الروحي :

يستخدم فن العجائبي الفاصل بين ما هو عقلي معنوي حي إلى عالم المادة و ما هو فيزيائي حي ينتمي إلى عالم المادة و عقلي معنوي ينتمي إلى عالم الروح و المعنى. [16] و لهذا المظهر تجليات متعددة في المعراج الصوفي .

- التحول : تأخذ أرواح العارفين صورة الطيور حيث سدرة المنهى فوقفت بين فروعها الدنيا و القصوى وقد غـــــشيتها أنوار الأعـــــمال و صدحت في ذرى أفنانها طيور أرواح العـــالمين و هي على نشأة الإنســان" .[17].

- تجسد الروحانيات : **أما تجسيد المعنوي، فيتجلى في تجسيد الموت في هيئة حيوان يتم ذبحه" قال السالك لمحي : " أخبرت أنك تذبح الموت إذا أتى الله يوم القيامة فيوضع بين الجنة و النار ليراه هؤلاء و هؤلاء يعرفون أنه الموت في صورة كبش املح".**[18]

و تتوالى صور امحاء الفاصل بين المادة و الروح من خلال النص فتظهر لنا صورة بناء يوسف بالزهرة " وقلت مرحبًا بهذا الابتلاء السعيد و الانتظام الجميل الحميد".[19]

و من مظاهر تجسيد المعنوي أيضا أنفسه الفتى الروحاني في معراج ابن عربي " فتى روحاني الذات رباني الصفات."[20]

و هو تجسيد لآيات القرآن العظيم و السبع المثاني.

4.4.الذات و الموضوع :

أي تقديم الذات متماهية مع ذوات أخرى أو مع أشياء أو أشياء خارجية " فرأيت البيت المعمور فإذا به قلبي." [21]

فقد جعل القلب موازيا للكعبة أما الطائفون فهم الأسرار.

5.4.الزمان و المكان :

يتجلى العجائبي من خلال الزمان النسبي للعالم، إذ ترتبط في نصوص المعراج بديمومة الخلق : يقول السالك لإدريس فإني رأيت في واقعي شخصًا بالطواف أخبرني أنه من أجدادي و سمي لي نقصه فسألته عن زمن موته فقال لي أربعون ألف سنة. "[22]

أما المكان العجائبي فله خصوصية في المعراج الصوفي ذلك أنه يحيل إلى المقدس هذه الخصوصية التي تسمح بتغيير صفات ا أشياء تبعًا للمتلقي يقول ابن عربي في وصف شجرة سدرة المنتهى : " أما الشجرة فلها فروع الجنان عالية، و لها فروع لأهل النار مستقلة فروعها لأهل الجنان تسمى السدرة و فروعها لأهل النار قد تكون هي الزقوم لما فيها من المرارة في الطعم".[23] ويمكن تخريجها على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال: "ثم رفعت إلي سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي ، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع نعتها من حسنها...الحديث

5. الخاتمة :

تتعاضد نصوص أدب المعراج مع مفهوم العجائبي الذي اورده تودروف و يتبين ذلك من خلال :

- تحمل نصوص المعراج في بنيتها الداخلية بذور العجائبي حيث تحقق هذه النصوص الشرط التودروفي الخاص بشخصات النص من عالم أحياء حقيقين و تنفرد هذه النصوص عن غيرها يتمظهر الشخوص خارج النص أيضا.
- يتجاور المألوف و اللامألوف في نصوص المعراج مما يؤدي إلى تفعيل دور المتلقي في اختبار التفسير المناسب و هذا ما يتوافق مع مفهوم العجائبي القائم على التردد في تفسير الوقائع.
- تقبل نصوص المعراج مظاهر العبور من المادي إلى الروح و العكس وهي من شبكة موضوعات الأنا.
- لاحظنا انعدام الفاصل بين ما هو روحي و ما هو مادي و يتمظهر ذلك من خلال آلية التحول بكل إشكاله.

6. قائمة المراجع:

[1] العظمة نذير، دار الباحث، دلتا، ص 05.

[2] نفسه.

[3] الثعالبي عبد الرحمن، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ت.ح محمد الفاضلي، المكتبة العصرية–بيروت، 1997، ج 3، ص 400.

[4] ابن منظور أبو الفضل ابن مكرم، لسان العرب، دار صادر، مادة (ع ر ج)

[5] الرازي عبد القادر ، مختار الصحاح، مادة (ع ر ج).

[6] المعا رج، الآية 03.

[7] محمدإسماعيل غبراهيم، معجم الألفاظ و العلام القرآنية، دار الفكر العربي، د.ت، ص 335.

[8] المعرج، الآية 4.

[9] ابن كثير إسماعيل، مختصر ابن كثير، ت ح محمد الصابوني، دار القرآن، لبنان، 1981، ج3، ص 547.

[10] ابن عربي محي الدين، الفتوحات المكية، دار الكتب و الوثائق القومية، ج3، ص70.

[11] نفسه، ص70–71.

[12] نفسه، ص 71.

[13] السابق.

[14] تودروف توفيتان، مدخل إلى الأدب العجائبي تر صديق بوعلام، دار شروقيات القاهرة، ط1، 1990، ص 69.

[15] ابن عربي الفتوحات المكية، ج 2، ص 275.

[16] السابق، ص 112.

[17] ابن عربي ، الفتوحات، ج3، ص 350.

[18] نفسه.ص 346.

[19] ابن عربي، الاسرا إلى المقام السرى ،ت ح عبد الرحيم مارديني، دار المحبة ودار آية، دمشق–بيروت، 2002، ص 19–20

[20] نفسه، ص 3–4.

[21] ابن عربي، الفتوحات، ج3، ص353.

[22] نفسه، ص 348

[23] ابن عربي، التنزلات الموصيلية، ت ح عبد الرحمن حسن محمود، عالم الفكر، القاهرة، د ت ، ص 303.